جامع الأعقاب ... يبحث عن الحرية !

قصة بقلم محمد احمد رمضان

التقط عقب السيجارة الاولى لذلك اليوم وقبلها على سبيل الاستفتاح (رغم انها كانت من نوع السجاير اللف) ، ثم وضعها في الكيس الورق طالبا من المولى دوام النعمة .

والنعمة التي كان يرفل فيها جلباب من القطن الكستور ممزق الاكتاف كان قد تلقاه هبة من هيئة معونة الشتاء منذ عامين ونيف . وعلى رقبته ومن فتحة بين الابط والصدر كانت تلوح على ثديه الايسر طبقات داكنة من الغبار والعرق اللذين انصهرا في بوتقة لونية واحدة .

والواقع انه كان اسعد حظا من كثير من السيدات الثريات اللواتي تمنعهن مشاغلهن الاجتماعية في صالونات التجميل والجمعيات الخيرية من الاستمتاع بحمام شمسي اكثر من مرة واحدة في الاسبوع لان اخانا سيدكان يستمتع بحمام شمسي خالد .

كانت الساعة تناهز منتصف الليل وهو الموعد المثالي ليبدأ عمله الذي يستمر حتى الثالثة او الرابعة صباحا ، وينقذ خلال ذلك ما يمكن انقاذه من الكناسين الذين تبدأ دورتهم الاولى في الخامسة صباحا.

وفي ذلك اليوم كان عليه ان ينتظر حتى الساعة الثانية عشرة والنصف عندما يخرج المتفرجون من سينما (قصر النيل) التي كانت تعرض فيلم « قصة الحي الغربي » . فقد كان محصوله اليومي يرتبط ارتباطا وثيقا بمستوى الافلام التي تعرض ، ونسبة امتلاء الصالة في حفلة السهرة ، واخيرا بنوع الفيلم نفسه . فاذا كان الفيلم غراميا ثقيلا فما اكثر السجاير التي يحرقها الرجال العشاق على باب السينما وهم يعانون من قلق انتظار فتياتهم اللائي قد لا يحضرن على الاطلاق اذا كان عندهن ادنى شك في احتمال عودة ابائهن من المقهى قبل منتصف الليل .

بيد ان الربح لم يكن يأتي بالسهولة التي تتصورها ، فقد كان على سيد أن يروض بقبضة يده وتكشيرة وجهه كل المتطفلين على منطقة نفوذه التي حددتها اتفاقيات شريفة عقدت بعد مصادمات دامية. ولكن كان من حسن حظه ان ماضيه الطويل في المهنة وسنواته التسع عشرة كانت ترهب زملاءه الصغار الذين يقلون عنه سنا وطولا واسنانا..

وقف ابو السيد على الرصيف الاخر المواجه لباب السينما وهو يتامل النعيم والوجوه المشرقة التي تخرج من المدخل الكبير . عالم باهر من العطور والازياء والالوان والاضواء التي تنعكس من العيون الفاجرة لمصابيح السيارات ووميض مجوهرات النساء .. وضحك عندما رأى شبانا متانقين وشيقين يتخلون فجاة عن وقارهم وثقلهم ليتظرفوا امام فتياتهم بان يقلدوا ابطال الفيلم وهم يغرقون اصابعهم في ايقاع وينحنون قليلا هاتفين في همس مثير برطانة اعجمية مبهمة :

Crazy boy, do it cool

ويرقب سيد كل فتاة منهن وهي تضحك في جذل لتكشف عن جمال تكوين اسنانها واعجابها برجلها على السواء . ويمصص شفتيه ترحما « على الاخلاق والرجولة في هذا الزمن » ، ولكن في اعماقه حسرة خفية لانه لا يستطيع ان يتظرف باللغة الافرنجية امام جارته الصبية الحسناء الشلق مبروكة .

وبدأ يتعقب السجاير وهي على شفاه مدخنيها . وراح يرقب شابا طويلا يتابط ذراع فتاة حسناء وهو يخرج سيجارة من علبة « كنت » اشتراها خصيصا لهذه المناسبة على الاغلب ودفع فيها خمسة وثلاثين قرشا بالتمام والكمال .. ومع ان خبرة سيد كانت تقول له ان الشاب الذي يسير مع الفتاة يلقي السيجارة عادة وهي نصف للحفاظ على مستلزمات المظهر ، الا ان هذا الزبون كان رغم رصانته الظاهرية محروق الاعصاب فلم يترك من السيجارة الا الفيلتر .

وتنهد سيد وقال لنفسه :

ـ لم يكن ينقص الا ان يحمل معه كيسا مثلي .

انتهى مولد السجاير .. وهدات الشوارع . وبدا سيد يكنس الاعقاب ليحافظ على جمال العاصمة السياحية . وركبته فرحة طاغية عندما عثر على لفافة امريكية طويلة تكاد تكون كاملة .

(سيجارة نسائية ولا شك . فالنساء لا يعرفن ابدا قيمة الجهد الذي يبذله الرجل للحصول على ثمن علبة دخان واحدة) .

ولم يخب ظنه ، فقد كان الفيلتر الابيض مصبوغا باحمر الشفاه القرمزي . لا شك انها فتاة كانت تتنزه مع صديقها في سيارته ولا تجد فرصة للتدخين الا في سيارة مغلقة او في فناء الجامعة الامريكية التي كان يلمح من خلال قضبان سورها في ساعات النهار فتيات يرتدين الشورت او يتمددن على العشب ويدخن بشراهة عجيبة .

(ليت التقاليد العفنة تزول وتسمح للنساء بالتدخين وهن سائرات في الطريق العام ، اذن لزاد « السروح » بمقدار الثلث على الاقل).

وعندما شارفت الساعة الثالثة صباحا كان قد قام بواجبه الوطني في ميدان الانتاج وزيادة الدخل القومي . فقد خرج بسروح يناهز ثلاثة ارطال من الدخان . وكان معنى هذا انه سيحصل على ثلاثين قرشا على الاقل من الاسطى عبد العال الذي يشترى التبغ منه ثم يبيعه بالقطاعي الى العربان ـ وخاصة عرب المحمدي ـ الذين يحتقرون الفيلتر والسجاير المصنوعة آليا ويجدون لذة لا تعدلها لذة وهم يلفون ورق التنباك باللسان ثم يلفون السيجارة و « يهندزونها » باصابعهم الغليظة الخشنة.

ولما كان سيد قد بدا حياته العملية في سن التاسعة فقد استطاع ان يدرك مما في كيسه . انه رغم ظهور الفلتر اللفين الذي يقصم ظهر السيجارة ، فان عدد المدخنين وعدد اللفافات المفحوصة تحت الاقدام في ازدياد مستمر ، وكان الناس لم يتاثروا بتقرير الجمعية الطبيـــة الملكية البريطانية عن علاقة التدخين بمرض السرطان .

وبدا سيد يتجه الى منزله العامر : غرفة خشبية على سطح مبنى عتيق متارجح في قلب حي بولاق ، يدفع ايجارا لها خمسين قرشـــا كاملة في الشهر .

كان بوسعه ان يختصر الطريق ، ولكنه اطاله لانه كان يشعر بلذة وهو يسير في شارع طلعت حرب العتيد ـ اعرق شوارع العاصمـــة اورستقراطية ـ دون ان يقبض عليه احد . فقد كان يعرف اسماء جميع رجال الشرطة في منطقة نفوذه ومواعيد نوباتهم الاسبوعية وحتى مرتباتهم وعدد اطفالهم . والحق انه لم يصنع هذه الصداقة بخفة دمه وذلاقة لسانه اذ كان لا بد ان « يغمز كلا منهم بين الحين والاخر بسيجارة يختارها الشرطي احيانا بنفسه ، خاصة في اواخر الشهر عندما يتساوى المديرون من ذوي الدرجة الاولى مع موظفي الدرجة التاسعة في الافلاس.

عالم الليل عالم غريب . فعندما ينتصف الليل يتحول شـــارع طلعت حرب الانيق المزدحم باللغات الاوروبية الى جثة هامدة او خربة كل ما فيها مستباح ، بحيث يخيل للمرء ان هذا الشارع مصاب بمرض انقسام الشخصية .

في الساعة الثانية عشرة يتسلل الباعة المتجولون الى رصيفيه ليفرشوا عليهما كل ما يخطر على البال : من السكاكين والكتب وفرش الحذاء البلاستيك ، الى ادوات المطبخ واجهزة اللاسلكي التي خلفتها الحرب العالمية ، والصور الفاضحة .

وبعدها بساعة تظهر على مسرح الميدان وجوه جديدة : مومسات يغطين اكتافهن بالشال وعلى شفاههن ابتسامة محنطة وقد انطفأ مـــن اعينهن بريق الحياة .

وفي الثالثة صباحا تختفي السكاكين والكتب والمومسات وتظهر مكانها منتجات الريف والمثقفين : عربات الخضار التي يقودها سائقون نيام ، تعقبها سيارات توزيع الصحف التي تنطلق بسرعة مسعورة في عكس اتجاه المرور القانوني ، مطمئنة الى ان اشارات المرور لن تفتح عيونها الحمراء المحتقنة قبل ظهور الشمس .

وصل سيد الى خارج منطقة نفوذه امام سينما راديو وهناك وجد امامه الآتي : امراة فارعة ممتلئة متشحة باللابة اللف تخرج من عمارة لم يستطع تحديدها وتسير بسرعة ووجهها ينطق بالاعياء . (لا شـــك انها كانت تقضي سهرتها مع طالب مكافح يقطن غرفة على سطح العمارة).

وفجاة وقفت سيارة بركبها ثلاثة شبان مرصوصون كلهم في المقعد الامامي وفي لمح البرق كان احدهم يخرج ويتحدث مع الفتاة في صوت هامس ، ومع ذلك فقد استطاع سيد أن يميزه على بعد عشرين مترا وسط سكون الليل . ولكن المراة المجهدة لم تلتفت نحوه بل راحت تغذ السير في ضيق بشوبه الخوف .. ووقف الشاب المخذول من ورائها محطم الكبرياء .. وفجاة صعبت عليه نفسه فانقلبت سحنته وهرع وراء المراة والسيارة تزحف في محاذاتها في بطء ثم جذبها في عنف الـــى داخل المقعد الخلفي .. وصرخت المراة في شراسة مدوية وبالفاظ بذيئة وهي تطلب النجدة .

ونسي سيد نفسه . وعندها عاد اليها ، وجد جسده مطروحا على الارض ورأسه مغروزا في الحصيرة الحديدية لواجهة محل تجـــاري انيق ، وشرطي يعدو نحوه بحذائه الثقيل ومشيته الريفية المترنحة ، وصوت السيارة تنطلق في فحيح رهيب ، والمراة المتقعة تنظر اليـــه زائغة العينين وراحة يدها تسد فمها اللاهث ذهولا ..

ووقف الشرطي امامه ونظر اليه ويداه على خاصرتيه وهتف به :

ـ بس مالك ومال اولاد الحرام دول ؟ هو انت كان لازم تعمل جدع وتاخد لك بوكس على وشى الصبح ؟.. يا فتاح يا عليم .!

ثم نظر الى المراة في حقد لم تستطع ان تواجهه ، فانطلقت تصدو خوفا من المبيت في مركز الشرطة .

ووصل سيد اخيرا الى غرفته فوجد اصدقاءه يهبون في وجهه :

ـ جرى ايه يا ابو السيد ؟ دا احنا بقالنا ملطوعين ساعتين .. هو الشغل يعني حبك معاك لحد دلوقت ؟

وضرب سيد راس اكبرهم شلبى في مزاح وفي فرحة من ردت اليه الروح وصاح :

ـ هو انتم تقدروا تلعبوا من غيري يا اولاد الكلب ؟ دانا الدودة بتاعتكم ..

وضحكوا جميعا . فالنكت التي يطلقها الكبار والاثرياء ـ على حد تعبير جولد سميت ـ ناجحة دائما .

كان القمار على اعقاب السجاير صلاتهم اليومية ساعة الفجر . وكانوا يتطلعون طول النهار الى هذه المتعة بشوق وقلق وتوتر .

وعند السادسة صباحا كانوا قد انقسموا فريقين : عابس يتظاهر باللامبالاة بالخسارة ، وفرحان يحاول عبثا ان يخفي سعادته . وكـان نصيب سيد من هذه الحرب الباردة نحو ثلاثين عقبا راح بعدها مرة بعد اخرى حتى اصابه السأم والنعاس فنام كالقتيل .

* * *

استيقظ في الواحدة بعد الظهر .. وارتدى ملابسه مسرعا ليلحق بالاسطى عبد العال الذي يشتري منه السروج .

هبط من السلالم العتيقة الخشبية وهو يحمل الكيس ، ثم عرج على شارع ٢٦ يوليو حتى بلغ مبنى ادارة الكهرباء والغاز فانحرف نحو دار اخبار اليوم التي تجاور عشش بولاق .. وما كاد يسير بضـــع خطوات حتى احس بخبطة يد جبارة على كتفه كادت تلقيه ارضا ..

وادرك اخيرا انه وقع في قبضة الشرطة ..

وفي قسم الشرطة كانت مفاجاة مذهلة تنتظره :

كان هناك وجه الضابط الجالس امامه .. وجه ليس بالغريب عليه .. وجه رآه في مكان ما وزمان ما .. واخذ الضابط يحدجـــه بنظرات من التشفي الممزوج بالسخرية . وسأله متثائبا وهو يفتح لـــه محضر دخان :

ـ اسمك ايه ؟

ـ سيد عمر احمد .

ـ عمرك كام ؟

ـ ١٩ سنة

ـ ابوك بيشتغل ايه ؟

ولم يرد سيد ، بل ظل لحظات مذهولا ، ثم انطلق شيء في راسه كالصاروخ .. وتذكر كل شيء ..

لو انه اقسم بجميع القديسين والرسل والاصنام ان هذا الضابط كان يجمع اعقاب السجاير معه منذ تسع سنوات لما صدقه احد ولشك الناس في سلامة عقله .. ومع ذلك ...

ـ ابوك بيشتغل ايه ؟

... فانه كان في يوم ما حافي القدم مثله ، ويرتدي جلبابا ممزقا مثله ، ويتعامل مع الاسطى عبد العال مثله ، فقد هرب من ...

ـ ابوك بيشتغل ايه يا ابن الكلب .

... هرب من اهله ذات يوم فاشتغل في جمع اعقاب السجاير فترة من الزمن حتى ادركه اهله .. وعندما نال التوجيهية دخل كليـــة البوليس واصبح ضابطا .. وسقطت على وجهه صفعة ضخمة مفاجئة زلزلت كيانه ، فوجد نفسه يصرخ في هذيان ..

ـ حرام عليك يا رمزي .. حرام عليك .. يهون عليك العيش والملح؟

وبدلا من ان يثور الضابط لكبريائه التي حطمها متشرد لم يتورع عن مناداته باسمه المجرد ، كأنه صديق الطفولة او رفيق الكاس والطاس راح ينظر اليه مبهوتا :

ـ بتعرف اسمي منين يا وله ؟

وتلفت سيد حوله فرأى مخبرا وشرطيا واقفين حوله ..

حضرتك عارف ..

وبفرس الضابط فيه بنظرات عميقة كادت ترعبه ثم استأنف الحديث وكأنه لم يحدث شيء :

ـ والدك بيشتغل ايه ؟

ـ كان بيشتغل في الفسيخ ، وبعدين راح السودان ومارجعش .

ـ ليك اخ اكبر منك ؟

ـ فيه واحد اصغر مني

ـ بيعمل ايه ؟

وصمت سيد لحظة :

ـ في اصلاحية المرج

ـ امك موجودة ؟

ـ ايوه .. لكن اتجوزت واحد تاني ..

ـ هو ابوك كان طلقها ..؟

ـ لا ..

وهز الضابط رأسه عجبا ، ثم اهمل الموضوع لانه لم يشأ ان يصدع رأسه بمخالفة جديدة للقانون ، اذ كان موعد غدائه قد اوشك ..

وبعد دقائق قليلة كان سيد في غرفة الحجز ليواجه العدم والعالم كله بمفرده وهو دون سن الرشد .

وفي الساعة الرابعة حدثت مفاجأة جديدة ..

جاء الشرطي برجل عرفه على الفور وملأ جسمه بالرعدة .. لقد كان الاسطى حسنين .

اما عن الاسطى حسنين فحدث ولا حرج ، فهو ظل الله على ارض مملكة السبارس .. وهو الذي يسرح نحو خمسة وعشرين طفلا وحدثا تتراوح اعمارهم بين الثامنة والثامنة عشرة ، وكلهم يدخنون السجاير ويزاولون القمار بلا استثناء . ومن رابع المستحيلات ان يستطيع السريح التخلص من سيطرة الاسطى حسنين حتى لو تزوج وخلف هو واولاده ، ولو حاول الفرار والاستقلال بتجارته فان نصيبه الضرب الوحشي حتى تتكسر منه العظام . ومقابل هذا فعلى السريح أن يأتيه كل يوم برطل واحد على الاقل من السروح وينال لقاءه عشرين قرشا .. واذا قل الانتاج عن ذلك فانه يضرب السريح اذا كان مبتدئا او يحسم من اجرته اذا كان مخضرما ، وهو امر لا يقوى عليه اي سريح لان معنى ذلك انه سيحرم من متعة لعب القمار ليوم كامل .

ولكن سيد استطاع ان يهرب منه منذ عامين وفشلت جميع محاولات الاسطى حسنين للعثور عليه فقد كان مصمما على ان يزاول عمله حرا باي ثمن . وقد نجح في ذلك بحيث اصبح يكسب كل يوم مبلغا يتراوح بين الريال والثلاثين قرشا بنفس المجهود . ومع ان الزيادة في دخله لم تكن كبيرة ، الا انه كان يعتز باستقلاله .

وراودته فكرة غريبة : لماذا لا يكون الاسطى حسنين هو الذي ابلغ عنه ؟

وراح الاسطى حسنين يرمقه بنظراته النفاذة المرعبة حتى احس سيد بوخز في جميع اطراف جسمه خوفا من ضرباته الفنية التي طالما كالها له وهو صغير . ولكنه سرعان ما تمالك نفسه ورفع رأسه وهو يحس بانه كبر كثيرا خلال هذين العامين وبان من واجبه ان يدافع عن حقه في الحرية ..

ولدهشته وجد الرجل يدخل عليه دخلة غريبة ، فقد ابتسم له :

ـ ما شاءالله ابو السيد .. دانت بقيت راجل صحيح .

اذن فقد كبر فعلا واصبح رجلا . ولكن احساسه الخفي بالزهو كان يخالطه القلق والرهبة .

واضاف الاسطى حسنين وهو يغمز له في فهلوة المعلمين :

ـ بس الراجل الجدع ما يوقعش ..

وفجأة دق المنبه في رأس سيد :

ـ انت عرفت ازاي اني اتمسكت ؟

واستطاع الاسطى باستاذيته ان يضبط تعبيرات وجهه كيلا تفضحه فابتسم ابتسامة عريضة مليئة بالابوة ..

ـ الله .. الله .. الله .. جرى ايه ابو السيد ؟.. اجي اسأل عنك تقوم تبص لي كده ..؟ دانا فابلت النهارده الاسطى عبدالعال في السكة فراح قايللي انك مارحتش عنده النهارده وخايف يكون جرالك حاجة لا سمح الله .. فجيت هنا على طول ..

اضطرم الغلام خجلا ، ولكنه كان يدرك في اعماقه ان هذا الرجل جن ازرق وانه يسعى لغاية في نفس يعقوب .. فوقف يرقب مناورته في قلق :

ـ اسمع يا سيد .. انا صحيح زعلت جدا لما سبتنا كده من غير احم ولا دستور .. انا كنت اقدر اسوى الهوايل .. انما بقى قلت لنفسي بلاش ياواد .. دا زي ابنك ومسيره يعقل ويعرف قيمتك بكره .

وراح سيد يجاريه في شغل البوليتيكا (ولعله كان مدفوعا لا شعوريا بدافع الخوف) فقال له مجاملا :

ـ متشكر يا معلم .. دا احنا تربيتك برضه .

ونظر اليه المعلم في انبساط ، ولكن الشك خالطه فجأة في ان يكون هذا الولد النمرود قد تعلم مسح الجوخ والضحك على الذقون . فتفرس فيه في غيظ دفين وبدا تدريجيا يفرغ ما في جوفه .

ـ شوف يا سيد .. انا حانسى اللي فات . وحادفع الاثنين جنيه الكفاله بتاعتك ونرجع زي الاول ..

اذن فلم يفعلها الاسطى لوجه الله .

ـ والله .. والله يا معلم .. احنا متشكرين قوي .. بس .. بس يعني انت عارف .. الواحد وراه مسئوليات دلوقت وموش زي الاول . والقرشين اللي كنت باخذهم منك يادوب كانوا يملوا الزور .. وعشان كده لا مؤاخذة .. (وسكت) .

فوضع الاسطى يده على خاصرتيه وشخر . :

ـ بقى كده يا وله .. والله اتمردت وبقيت جدع .. طيب ابقى شوف مين اللي حيسأل عنك لما يرموك ٢٠ يوم في السجن . ولما تخرج برضه موش حااعتقك .

ـ انا حادفع الكفاية يا معلم .

ـ انت ؟ هاها .. حلوة دي .. دا الحشيش والقمار قطع نفسك وخسر الجلد والسقط هو انت حيلتك حاجة يا وله ؟ بقى شوف يا واد شغل الفهلوة العيالي بتاعك ما باكلش بعقلي حلاوة .. انا اللي راح ادفع الكفالة .. ومن بكرة تعمل حسابك ترجع الشغل معايا .. ولو هربت كده والا كده ورجعت لشغل الثلاث ورقات حاجيب خبرك واخليك تقول توبه يا معلم حسنين .. انت فاهم ؟

وسقطت على رأسه صفعة من يد غليظة كالمطرقة .. ورأى الدنيا شرارا فامسك بحزام الاسطى واخذ يهزه في تشنجات هيستيرية وهو يصرخ كالمجانين وكأنه يبكي :

ـ انت بتضربني .. انت بتضربني .. طب وشرف امي لو مديت ايدك تاني لابلغ عنك زي ما بلغت عني . انت فاكرني حمار ؟.. انا فاهمك كويس .. وشرف امي ما حد عملها فيه غيرك .. ولو عملتها تاني حا ابلغ عنك انك متعهد سبارس ، وتاخذ لك سنتين حبس ، وثلاثة كمان .. آه .. انت فاكرني ايه ..؟

وامتقع وجه الاسطى الناصع وقال :

ـ والله كبرت وبقيت ابوكاتو .. بقى كده ؟
ـ ايوه كده .. انت فاكرني ايه .
واخذ الاسطى يهز رأسه وهو يقلب فيه النظر عجبا .. ثم زفر زفرة طويلة قبل ان يقول في بطء ويضغط على كل كلمة :
ـ ما ابقاش المعلم حسنين اذا خليت بني آدم واحد يشتري منك .. (وخرج) .
ومع انه كان شبه واثق بان المعلم لن يفلح في فرض اي حصار اقتصادي عليه وانه انما كان يقول ذلك من قبيل الانسحاب بكرامة ، فقد داهمه احساس غامض مرعب بان الاسطى حسنين قد يتفرغ للقضاء عليه من قبل الانتقام كي لا يتحول الى بطل شهيد (وهي سابقة خطيرة) في نظر السريحة العاملين تحت امرته .

* * *

قسم البوليس هو الارض الحرام التي لا يرضى السريحة بوطء درجاتها حتى للتهنئة بالسيد . اذ لم يكن هناك فرق كبير بين « محضر الدخان » الذي فتحه ضده ضابط البوليس وبين محضر التشرد العادي سوى ان لمام السبارس يستطيع ان يدفع جنيهين اذا كان فوق الثامنة عشرة ويخرج .
كان حول وسط ابو السيد كيس يحفل بورقة خضراء من فئة الخمسة جنيهات واقل من جنيه من الاوراق الصغيرة . ولكن الخوف زين له ان هناك الف عين سحرية سرية تراقب حركاته وتنتظر منه ان يكشف عن موطن ثروته لكي تنقض عليه وتجرده من الضمان الوحيد لمستقبله . فما اسرع الطمع في مال الضعفاء العاجزين .
وكما هي دائما ماساة النفس البشرية فان الانسان الحساس اذا وضع في موقف محرج ، فانه كثيرا ما يخشى ان يشك فيه الناس ـ رغم براءته الكاملة ، فيضطرب ويتلعثم ، محدثا بذلك العكس بحيث يصير الناس يشكون فيه فعلا .
ولقد خشى سيد ان يبدو عليه انه يحمل نقودا فكانت النتيجة ان ظلت يده دون ان يدري ملتصقة بوسطه في اضطراب ونظرات قلقة سريعة اثارت شكوك الشرطي الذي كان يقضم كسرة خبز وقطعة جبن طرية بيضاء . ولكن الشرطي المحنك تظاهر بانه لم يلحظ شيئا على الاطلاق . فما ان طبق الورقة على فتات غذائه والقاها من النافذة في تصويب مضحك وكرشه يهتز (وكأنه ما زال ذلك الصبي الذي كان يلعب كرة السلة في مدرسة روض الفرج الابتدائية) حتى انسل نحوه وراح يواسيه ..
ـ ما تدفع الاثنين جنيه يا عبيط وتخرج .. هو انت مستنى ايه ؟
ـ ما حيلتي حاجة والله يا شاويش .
ـ يا واد بطل تمثيل ..
وامتدت يده كصاعقة كهربائية على سترته .. وفي لحظات كان امام خصمه اللدود وزميل المهنة القديم الضابط رمزي . كان مشلول اللسان بارد الاطراف مثل جثة طازجة . ولكن رمقا اخيرا من الذكاء جعله يصيح :
ـ انا كنت جاي ادفع الكفالة وحياة النبي ..
وفكر المأمور مليا حتى وجد ان الصفقة الرابحة تقتضي دائما بعض التضحية ، فرضي ان يستقطع من الثروة المضبوطة الجنيهين اللازمين لدفع الكفالة ، وصادر باقي المبلغ ..
وخرج سيد الى الشارع والهواء والسماء المفتوحة فوق رأسه وهو يكاد يبكي من الغيظ ، ولم يكن يعرف ان المأمور لم « يكرمه » في الجنيهين الا لكي ياسره بالجميل ويضمن سكوته على سره الكبير المظلم منذ عشر سنوات مضت .

* * *

كان اول ما فعله هو ان راح يطلب من الله رضا الوالدين . فذهب الى منزل والدته وهو يقدم رجلا ويؤخر اخرى . لم يكن قد رآها منذ شهر ونيف ، ومع ذلك ركبه التردد ، لا لانها تزوجت من جديد وانجبت اربعة اولاد لا يبدو عليهم سيماء التشرد ، بل لانه كان قد عود نفسه على ان يزورها وفي يده هدية او جنيه او كيلو من الفاكهة ـ وهذا اضعف الايمان .. ومن ناحيتها هي فقد عودته ايضا ان تسلقه بنظرات بليغة قاسية اذا تهاون مرة في اداء هذا الواجب نحو من شقيت بحمله تسعة اشهر بين التأفف والضجر . ولكن بمن سواها يلوذ من هذا العالم العاتي .
كانت راقدة على سريرها بوجه شاحب مخضر بسراء المرض والمخدرات .. كل الغضون التي كانت تخفيها عن زوجها الثاني انطلقت متجمعة متشابكة كعقدة من الافاعي .
كان الزمان قد انساها ثمرة زواجها الاولى .. ولكنها تحدثت هذه المرة بصوت خافت اكسبه ذبول المرض شيئا من الرقة .
ـ ازيك يا ابني ؟
ـ الحمد لله يا امه ..
ـ وازاي اخوك حامد ؟
ـ يبوس ايديك
وصمت .. صمت كأنه هروب من واجب ثقيل .
وفجأة لم يستطع ان يضبط اعصابه فصاح فيها معاتبا ..
ـ يا امه موش تبطلي بقى الهباب ده اللي قاطع نفسك ؟.. حرام عليك اولادك اولى بيكي .
فنظرت اليه في ابتسامة ذابلة كشفت عن كل تجاعيد سنواتها الخمسين .
ـ هو انت فاكر لسه في نفس يا ابني ؟
واخذت تتنفس فيه طويلا باسمة وكأنها لن تراه بعد اليوم ولاول مرة سمع في صوتها نبرة حنان :
ـ جبت لي ايه معاك النهارده ؟
ـ حبسوني يا امه .
ومالت الى الامام قليلا وهتفت في قلق :
ـ هم ضربوك ؟
ـ لا يا امه .. لكن
وخاف ان يقول لها ان تحويشة العمر قد طارت فتساله بدورها كيف اخفى خبر التحويشه عن امه التي حملته تسعة اشهر .. فلاذ بالصمت ولم يكمل .

* * *

عندما ذهب في يوم الجمعة التالي الى اصلاحية المرج للاحداث وطلب مقابلة اخيه الصغير حامد الذي اودعوه هناك منذ اربعة اعوام منذ ان قام باول جولة لجمع اعقاب السجاير وهو في الثامنة من عمره .. كان يحمل في يديه جلابية كستور وكيلوين من الموز والبرتقال وفي جيبه خمسة وعشرون قرشا استدانها من زميله شلبى .
قضى هناك ساعة نسي فيها هموم الدنيا مع اخيه الصغير . وذات لحظة رفع اليه حامد عينين حلوتين مليئتين ببراءة الطفولة والاعجاب باخيه الكبير الشاطر القوي الناجح وراح يسأله :
ـ وازاي الشغل معاك ؟
ـ عال العال .. ما فيش حد له كلمة عليّ
وابتسم ابتسامة كأنها الثقة بالنفس ثم صاح :
ـ ما تخافش .. اخوك جدع
ـ وامتى راح تفتح كشك السجاير والكاكولا
ـ الشهر الجاي ان شاء الله
قالها وهو يتفادى النظر الى اخيه كيلا تفضحه عيناه ، فقد كان هذا المشروع مجرد احلام يقظة وامنية خرافية لمتشرد شريف لا يملك حتى ثمن تذكرة العودة .
وعندما خرج من باب الاصلاحية رأى عقب سيجارة فالتقطها وهو يتلفت خشية ان يراه اخوه المخدوع ، ثم راح يسرع الخطا في نشاط كي يقطع على قدميه الكيلومترات الثلاثين التي امامه بحيث يصل القاهرة قبل ان تبدأ نوبة الكناسين ساعة الفجر .

القاهرة

محمد أحمد رمضان